

قال أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الفقيه الأندلسي رحمه الله . الحمد لله على عظيم منته ، وصلى الله على محمد عبده وخاتم أنبيائه ورسله ، وأبرأ إليه تعالى من الحول والقوة . وأستعينه على كل ما يعصم في الدنيا من جميع المخاوف والمكاره .

ويخلص في الأخرى من كل هول ومضيق . (أما بعد) فإنني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى ، بمرور الأيام وتعاقب الأحوال ، بما منحني عز وجل من التهمم (1) بتصاريف الزمان ، والإشراف على أحواله . حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري ، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له ، وعلى الازدياد من فضول المال ، وذممت كل ما سبرت (1) من ذلك ، لينفع الله تعالى به من يشاء من عباده ، ممن يصل إليه ما أتعبت فيه نفسي وأجهدتها فيه ، وأطلت فيه فكري فأخذه عفواً ، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال وعقد الأملاك ، إذا تدبره ويسره الله تعالى لاستعماله . وأنا راج في ذلك من الله تعالى أعظم الأجر ، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ومداواة علل نفوسهم ، وبالله تعالى أستعين . في مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق الذميمة (6) لذة العاقل بتمييزه ، ولذة العالم بعامه ، ولذة الحكيم بحكمته ، وبرهان ذلك . أن الحكيم والعاقل والعالم والعامل ، واجدون لسائر اللذات التي سمينها كما يجدها المنهمك فيها . ويحسونها كما يحسها المقبل عليها . وإنما يحكم في الشئيين من عرفهما . لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر . إذا تعقبت (1) الأمور كلها فسدت عليك وانتهت في أخذ (1) تعقبت : أى طلبت عورتها وعثرتها . فسدت عليك فإذا عبقها ، وحل بك اليأس من جدواها وهو أقرب توجيه لصحة العبارة . فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا – إلى أن الحقيقة إنما هي العمل للآخرة نقط . لأن كل أمل ظهرت (1) به فعباه حزن . إما بذها به عنك وإما بذهابك عنه ؛ ولا بد من أحد هذين السبيلين ، إلا العمل لله عز وجل ، فعباه على كل حال سرور في عاجل وآجل . وأنتك معظم من الصديق والعدو . تطلبت غرضاً يستوى الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه فلم أجده ، فلما تدبرته عامت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط ، حركة أصلام . إلا فيما يرجون به طرد الهم . ينطقون بكلمة أصلا ، ومن مصيب ، وهو الأقل (1) هي كذلك بالأصل ومعناها غير بين ، والظاهر أنها مصحفة من قوله (ظفرت) . فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها مذ خلق الله تعالى العالم ، إلى أن يتناهى عالم الابتداء ، على أن لا يعتمدوا بسعيهم شيئاً سواه . وكل غرض غيره ، ففي الناس من لا يستحسنه إذ في الناس من لادين له فلا يعمل للآخرة ، ومن الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته على بعد الصيت ، ويؤثر عدمه على وجوده . ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة (2) وفي الناس من يبغض اللذات بطبعه ، كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه . يؤثر الجهل على العلم ، وهذه هي أغراض الناس ، التي لا غرض لهم سواها . 6. وليس في العالم مذ كان إلى أن يتناهى أحد يستحسن الهم ، ولا يريد إلا طرحه عن نفسه . الذي اتفق جميع أنواع الانسان ، الجاهل منهم والعالم ، والصالح والطالح ، على السعى له . وإلا فإنما طلب المال طلابه ، وإنما طلب الصوت (1) من طلبه ليطرد به عن نفسه (1) في القاموس : الصيت بالكسر الذكر الحسن والصوت فيه لغة هم الاستعلاء عليها . ونكح من نكح ، ولبس من لبس ، وركب من ركب ، وذهاب ما يوجد منها (1) هكذا وردت في أصول الطبقات الثلاث التي رجعنا إليها وهي ط . القباني الدمشقي ، ط . والمعنى بها غامض وأهل صحتها «فوتها» بالفاء لا بالقاف وبها يتضح المعنى ويستقيم السياق . وأيضاً سوش (1) بالحصول على ما حصل عليه من ذلك ، من خوف منافس ، واختلاس راغب أو اقتناء عدو ، مع الذم والإثم وغير ذلك . ووجدت العمل للآخرة سالما من كل عيب ، خالصا من كل كدر ، ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل ، لم يهتم بل يسر . إذ رجاءه في عاقبة ما ينال ، به عون على ما يطلب ، وزائد في الغرض الذي يقصد . لم يهتم ، إذ ليس مؤاخذاً بذلك ، فهو غير مؤثر في ما يطلب (1) كذا جاءت في أصول الطبقات المختلفة . والعبارة على حالها غامضة مبهمه . والظاهر أنه وقع بها تصحيف . وإن تعب فيما سلك فيه سر . فهو في سرور متصل أبداً ، وغيره بخلاف ذلك أبداً . وليس إليه إلا طريق واحد ، وهو العمل لله تعالى . فما عدا هذا فضلال وسخف . وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل . في دعاء إلى الحق ، وفي حماية الحريم . لم يوجه به (1) عليك خالقك تعالى نصر مظلوم . ، وفي كبائع الباقوت بالحصا . الا مروءة لمن لا دين له . العاقل لا يرى لنفسه تمنا إلا الجنة لإبليس في ذم الرياء حباله ، 1) أى لم يوجب عليك احتماله لتؤجر به والحال أنه ليس في احتماله والصبر عليه أجرباب . واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل . بل هو العقل كله والراحة كلها . من قدر أنه يسلم من طعن الناس وعيبيهم فهو مجنون . وإن آلمته في أول صدمة كان اغتباطه بدم الناس إياه ، لأن مدحهم إياه إن كان بحق ، وبلغه مدحهم له أسرى ذلك فيه العجب فأفسد بذلك فضائله . وإن كان بباطل فبلغه فسر فقد صار مسروراً بالكذب . وأما ذم الناس إياه ، فربما كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه ، وإن كان بباطل فصبر . اكتسب فضلاً زائداً بالحلم والصبر ، وكان مع ذلك غائماً . لأنه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل ، أحوج ما يكون إلى للنجاة بأعمال لم يتعب فيها ولا تكلفها . وهذا حظ رفيع لا يزه فيه إلا مجنون . فكلامهم وسكوتهم سواء . وليس كذلك ذمهم إياه ، لأنه غانم للأجر على كل حال ، بلغه ذمهم أو لم يبلغه . ولولا قول رسول الله صلى الله

عليه وسلم في الثناء الحسن: ذلك عاجل بشرى المؤمن لوجب أن يرغب العاقل في الذم بالباطل ، أكثر من رغبته في المدح بالحق ، ولكن إذا جاء هذا القول ، فإنما تكون البشرى بالحق لا بالباطل ، فإنما تجب البشرى بما في المدح لا بنفس المدح . ليس بين الفضائل والرزائل ، والطاعات والمعاصي ، إلا نفار النفس وأنسها فقط . فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل والمعاصي . والشقى من أنست نفسه بالرزائل والمعاصي ونفرت من الفضائل والطاعات هاهنا إلا صنع الله تعالى وحفظه طالب الآخرة متشبه بالملائكة . وطالب الصوت والغلبة متشبه بالسباع وطالب اللذات متشبه بالبهائم . أسقط وأذل من أن يكون له في شيء من الحيوان شبه . ولكنه يشبه العذرات في الكهوف في المواضع الوعرة ، لا ينتفع بها شيء من الحيوان . العاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبع أو بهيمة أو جماد . وإنما يغتبط بتقدمه في الفضيلة التي أبانه الله بها عن السباع والبهائم والجمادات ، وهي التمييز الذي يشارك فيه الملائكة . فمن سر بشجاعته التي يضعها في غير موضعها الله تعالى . فليعلم أن النمر أجراء منه . وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه . ومن سر بقوة جسمه فليعلم أن البغل والنور والفيل أقوى منه جسماً . أن الحمار أحمل منه . ومن سر و من سر بحمله الأثقال فليعلم . بسرعة عدوه . فليعلم أن الكلب والأرنب أسرع عدواً منه . ومن سر بحسن صوته فليعلم أن كثيراً من الطير أحسن صوتاً منه . وأن أصوات المزامير ألد وأطرب من صوته . فأى فخر وأى سرور فيما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه ،